48 ساعة
في دبي

48 ساعة في دبي

غازي حسين العلي

قصـة للفتيان

Qindeel | قـنـديل

48 Hours in Dubai

Ghazi Hussain Al Ali

٤٨ ساعة في دبي

غازي حسين العلي

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 191246 تاريخ (13/8/2017)

ISBN: 978- 9948- 10- 197- 0

إن الأحداث والشخصيات المذكورة في هذه القصة هي من محض خيال الكاتب ولا تعبر عن أحداث أو أسماء على أرض الواقع، كما أن الناشر لا يتبنى بالضرورة الأفكار والتوجهات المذكورة في القصة.

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2017

الطبعة الأولى: آذار / مارس 2017 م – 1438 هـ

الإهداء

إلى أهل الإمارات

وإلى كل من وضع لَبنة من لَبنات

هذا الوطن الطيب.

همس أبي في أذني، وهو يُمسّدُ شعري براحة كفِّه:

– اربط الحزامَ جيداً يا بُنيَّ، فالطائرةُ على وشكِ الإقلاع.

في تلكَ اللحظةِ التي أيقظني فيها أبي من شرودٍ ممتع، كنت أسترجعُ شريطاً من صورٍ بديعة أثْرَت خيالي: برجُ خليفة، حديقةُ الفراشات، حديقةُ الزهور، القريةُ العالمية، مدينةُ السلام، فندق أتلانتس، مول دبي ونافورتُه الموسيقية، وغيرُها من معالمَ حضاريةٍ كانت لا تزالُ راسخةً في ذهني.

TOM FORD
22K
22K

كانتِ الطائرةُ، لحظتئذٍ، تستعدُ للإقلاعِ من مطارِ دبي الدولي، متجهةً إلى العاصمةِ الهندية نيودلهي. قبلَ ذلك، أمضيتُ معَ أسرتي نحوَ ثمانيةٍ وأربعينَ ساعةٍ في دبي. كانت مدينةً عامرةً مفعمةً بالحياة، تَحُفُّ شوارعَها الفسيحةَ أشجارُ النخيل والغافِ والسدر، وعندَ جذوعِها تنبسطُ مروجٌ من عشبٍ وأزهار، وعلى مدّ البصرِ المبهورِ، كنا نرى بملءِ العينِ أبراجاً باسقةً تُعانقُ الفضاءَ بلمعانِ ألوانِها الأخَّاذ.

* * *

حينَ أقلعت طائرتُنا من مطارِ فرانكفورت، كنتُ جالساً إلى جانبِ أبي على مقعدينِ متجاورينِ، بينما كانت أختي حنان، التي تصغرُني بخمسِ سنوات، تجلسُ قربَ أمي في المقعدِ الذي أمامَنا.

بمحاذاتنا تماماً، على الطرفِ الآخرِ من الممرِّ الضيقِ، كانَ يجلسُ رجلٌ بدينٌ أصلعُ، تستقرُّ أعلى وجهِه عينانِ جاحظتانِ تشبهانِ عيني غراب. كانت وجهتُنا النهائيّةُ الهند، حيثُ بدأَ أبي عملَه هناكَ في عاصمتِها نيودلهي منذُ بضعةِ أشهرٍ، مستشاراً اقتصادياً في شركةٍ عالميةٍ معروفة.

الرجلُ البدينُ أثارَ رِيبتي منذُ جلوسِنا على مقاعدِ الطائرة. كنتُ أراقبُه بحذرٍ، وهوَ يُصوّبُ بعينيه الجاحظتينِ نظراتٍ مُفزعةً نحوَ أبي، الذي كانَ مشغولاً بمداعبةِ أختي حنان، والتحدثِ إلى أمي.

نسيتُ أن أقولَ لكم إن اسمي خالد، وأنا الآنَ في الصفِ الثامنِ الأساسيّ، ورغمَ أني ولدتُ في ألمانيا، فالفضل يعودُ لأمي، مدرّسةِ اللغة العربيةِ سابقاً، في حُسن نطقي للغتي العربيةِ الأم، التي أُجيدُها ببراعةِ تلميذٍ مجتهد.

* * *

في البيتِ، ونحنُ نُوضّب أغراضَنا استعداداً للسفر، أبلغَ أبي أمّي أننا سنتوقفُ لنحو ثمانيةٍ وأربعينَ ساعةً في مدينةِ دبي لزيارةِ معالِمِها. وسمعتُه يسردُ لأمّي، حكايةً موجزةً لهذه المدينةِ المعجزةِ التي يُلقبونها بِدانةِ الدنيا.

كانَ لكلماتِ أبي وقعٌ خاصٌّ في نفسي، ومعَ ذلك فقد كانَ من الممكنِ أن أنسى تفاصيلَ حديثِه مع أمّي، لولا أن اللهَ قدَّر لي أن أُمضي مع أسرتي تلك الثمانيةَ والأربعينَ ساعةً في دبي؛ فتحولت تلكَ الساعاتُ إلى أيقونةٍ أثرتْ حياتي، وحرّكت حُب المعرفةِ والإبداعِ في نفسي. لقد أَتاحت لي هذه الزيارةُ أن أُسجلَ في دفترِ مذكّراتي قصةَ مدينةٍ ساحرة، ابتكرت معانيَ جديدةً للحياة، فجاءَها الناسُ من كل حَدبٍ وصَوب.

ابتسامةُ المضيفاتِ والمضيفينَ في الطائرة، لم تبرحْ أفواهَهم قطّ، وكانت تبعثُ في نفسي الراحةَ والاطمئنان. قائد الطائرة زرعَ نبتة الأمانِ فيّ أيضاً، وهو يعلنُ بصوتِه العَذب عن بدءِ الرحلة: أعزائي

الركاب، أسعدَ اللهُ أوقاتَكم وأهلاً بكم على متنِ الخطوطِ الجويةِ الإماراتية .. ستستغرقُ الرحلةُ من فرانكفورت إلى مطارِ دبي الدولي نحْوَ ستّ ساعات ونصف .. الطائرةُ الآن على ارتفاعِ تسعةٍ وثلاثينَ ألفَ قدم، والحرارةُ المتوقعةُ في مدينة دبي نَحوُ ثمانيةٍ وعشرينَ درجةً مئوية .. نتمنى لكم رحلةً سعيدة.

قال لي أبي مُحاولاً تبديدَ خوفي، كعادته، ونحنُ على هذا الارتفاعِ الشاهق:

- زيارةُ دبي ستكونُ فرصةً ثمينةً لكَ ولأختكَ حنان.

فوجدتُني أقولُ لأبي:

– لقد سمعتُهم يتحدّثونَ عنها في الأخبار، ولكنني لا أعرفُ الكثير عنها يا أبي.

– إنَّها تقعُ على الخليجِ العربيِّ يا بُنيّ، وهي إمارةٌ من دولةِ الإماراتِ العربيةِ المتحدة.

ومعَ أنني لم أفهم جيداً ما قاله أبي، فقد سألتُه:

– وما الذي سنجدُه فيها يا أبي؟

– كلَّ شيء؛ لقد أصبحت دبي الآن قبلةً لرجالِ الأعمالِ والسيّاح، ويأتيها الناسُ من كلِّ مكانٍ في الدنيا. سترى فيها، يا بُنيّ، ما يمكن أن تراه في العالم، إنّها، كما يقولون، عالمٌ في مدينة.

نظراتُ الرجلِ البدين عادتْ من جديد، ولكنَّها هذه المرّة، كانت أكثر حدةً ووقاحة. فكّرت للحظاتٍ أن أفصحَ لأبي عن رِيبتي من نظراتِ هذا الرجلِ الجالسِ بمحاذاتِنا، لكنني لم أفعلْ، بعد أن ساوَرَني شكٌّ أن الأمرَ قد يكونَ محضَ فضول، وأن الرجلَ يبدي اهتماماً بأبي، لكونِه وجهاً اقتصادياً مشهوراً، وضيفاً دائماً في محطاتِ التلفزةِ العربيةِ والعالمية.

كان المبنى رقم 3 في مطارِ دبي يشبهُ خليةَ نحلٍ تعملُ بانتظامٍ عجيب،

مع وجوهٍ بَشوشةٍ ترحبُ بالقادمين، إلى درجة تشعرُ فيها بأنك في ديارِك وبينَ أهلك. وكانت كلماتُ موظفي المطارِ المرحِّبةِ بمقدمِ الزوار، تلاحقُهم أينما حلّوا في المبنى، متمنّيةً لهم زيارةً موفقةً، وحافلةً بالسرورِ والبهجة.

أهلاً بكم في دبي.

قالَ الموظفُ لأبي بعدَ أن وضعَ ختمَ الدخولِ على جوازاتِ سفرِنا، بينما شرعَ أبي من لحظتِه يردُّ على كلماتِه الطيبةِ بهَزَّةٍ من رأسِه، يشكرُه فيها على حسنِ الترحيبِ والاستقبال.

همسَ أبي لأمي التي كانت تمشي إلى جوارِه، ونحنُ نعبرُ بهواً فسيحاً، تضجُّ أرضيتُه ببريقِ رخامِه الأخَّاذ:

- إنهم أُناسٌ طيبون.

فعلَّقت أمي قائلة:

- يا ليتَ كلَّ موظفي المطاراتِ في العالمِ يكونونَ على صورتِهم.

ههههههههه.

وبضحكةِ أبي هذه، كانت رحلتُنا في دبي، قد بدأت فعلاً.

في بَهوِ الفندقِ الفسيحِ، راعَنَي وجودُ الرجلِ البدينِ نفسِه، وهو يعبثُ بهاتفِه الجوال، ويلتقطُ خلسةِ صوراً لأبي!

هذه المرة وجدتُه سميناً أكثرَ مما خلته وأنا في الطائرة، بعدَ أن ظهرَ أمامي من جديدٍ في البَهو مثل كرةٍ مثقوبةٍ من طرفِها.

هل أبي مشهورٌ إلى هذه الدرجة، لكي يلتقط له هذا الرجلُ البدينُ، ذو العينينِ الجاحظتينِ المخيفتينِ، الصور بهاتفه خلسةً.

لو كانَ أبي (توم كروز) أو (جيمس بوند) لقلتُ إنَّ الرجلَ من (الباباراتزي) الذين يلتقطونَ الصورَ لكبارِ النجومِ ليبيعوها، لكنَّ أبي اقتصاديٌّ وليس نجماً من نجوم السينما؟ ثم إن (البباراتزي) يبدونَ أكثر خفّةً ونشاطاً، وهم يحملونَ بأيديهم كاميراتهم الكبيرة، وليسوا مثلَ هذا الرجلِ البدينِ، مستديرِ القامة، الذي يلتقطُ الصورَ من جوالِه الصغير!

همست لأبي:

-هل تعرفُ الرجلَ الجالسَ هناكَ يا أبي؟

نظرَ أبي إليهِ دونَ اهتمامٍ، وهو يجيبني:

-لا، لا أعرفُه.

ثم أعقبَ يسألُني:

– ولماذا تسألنُي يا بُني؟

– إنه ينظرُ إليكَ مذْ كانَ يجلسُ إلى جانبِنا في الطائرة، وها هو الآنَ يتبعُنا إلى الفندق، ويلتقطُ لك الصورَ خلسةً.

ربَّتَ أبي على كتفي وهو يبتسمُ، ثمَّ علّق قائلاً:

– يبدو أن الأفلام البوليسية التي تشاهدها قد أثرت في عقلك.

ثم تابعَ يقولُ، وهو يحتضنُ رأسي بذراعِه:

– أنا مجردُ رجلِ اقتصادٍ يا بنيّ، ولستُ من رجالِ الفنِّ والسياسةِ المشهورينَ حتى يهتمَّ أحدٌ بأمري.

* * *

خصصت إدارةُ الفندقِ، بالاتفاقِ مع أبي، سائقاً يعملُ دليلاً سياحياً لمرافقتنا. كانَ أبي قد اتفقَ مع السائقِ الدليلِ أن يضعَ لنا برنامجاً مكثفاً نزورُ فيه، خلالَ هذهِ المدةِ القصيرة أهمَ المعالمِ العمرانيةِ والحضاريةِ في المدينة، لكنَّ إطلالتَه الشامخة ولمعانَ لونِه الفضيِّ، جعلا برجَ خليفة وجهتَنا الأولى، فطلبَ أبي من دليلِنا السائق أن نبدأَ الجولةَ بزيارتِه، بعدَ أن لاحظَ أنَّ أبصارَنا، أنا وأمّي وأختي حنان، مشدودةٌ إليه.

– برج خليفة ... يااااه .. لقد أحسنتُم اختيارَ البدايةِ.

تَمْتَم الدليلُ وهو يميلُ برأسِه نحوَ أبي الجالسِ إلى جوارِه، ثمَّ أعقبَ بصوتٍ خفيض:

- فَلنبدأْ إذن من برجِ خليفة.

* * *

يا الله، ما هذهِ المعجزةُ البشرية!

صاحت أمي بدهشة، وهي ترتقي بعينَيها طوابقَ البرجِ الممتدةِ إلى أعلى، ثم تابعت تقولُ لأبي:

- لقد درتُ نصفَ العالمِ وقرأتُ عن نصفِه الآخر، ولكني لم أرَ برجاً يماثلُه بهذا العلوِّ والجمال.

حينَ أصبحنا عند حافةِ البرج، كانتْ نظراتُنا المبهورةُ لا تزالُ ترتفعُ عالياً نحو ساريتِه. وقفَ الدليلُ بمحاذاتِنا، وراحَ يروي لنا عن ظهرِ قلبٍ، قصةَ هذا الصرحِ المعماريِّ الأعلى في العالم:

- لقد بُدِئَ ببناءِ برج خليفة في 21 سبتمبر 2004، وتمَّ افتتاحُه رسمياً في 4 يناير 2010، ليصبحَ البناءَ الأعلى في العالم. يرتفعُ نحوَ 830 متراً عن الأرض، ويضمُّ شرفة مشاهدةٍ مفتوحةً للجمهور، وكذلك أعلى مسجد، وأعلى مطعم، وأعلى حوض سباحة، و57 مصعداً، و8 سلالم متحركة، وشاركَ في تشييدِه نحوُ 12 ألفَ عاملٍ ومهندس.

وبعدَ لحظةِ صمت، كان يستحضرُ فيها بعضاً من معلوماتِه، تابعَ السائقُ الدليل، وبنفسِ الاندفاعةِ التي بدأها:

– لقد أصبحَ البرجُ قبلةً لعشاقِ الفنون، ويضمُّ الآن في أرجائِه أكثرَ من 1000 عملٍ فنيٍّ عالمي، أُبدعت خصيصاً للبرج.

ثم استدركَ قائلاً، وكأنه تذكرَ أمراً كادَ ينساه:

– ما رأيُكم أن نصعدَ إلى منصةٍ (في عنان السماء) لتروا دبي من أعلى رؤية فريدة لن تروا مثلها أبداً؟

– في عنانِ السماء؟!

تَمْتَم أبي، ثم تابعَ يسألُه:

– وفي أيِّ طابقٍ تقع؟

– في الطابق 148.

زمَّ أبي شفتَيهِ وهو ينظرُ إلى أمي، ثم أومَأ برأسِه للسائقِ الدليل، أن نبدأَ حالاً بالصعود.

في الطابق 148، أتاحتْ لنا مناظيرُ المنصة أن نرى دبي، كما قالَ الدليل، على حالٍ لم نكن نتوقعُها أبداً: أبنيةٌ أنيقةٌ وأبراجٌ شاهقةٌ وشوارعُ عريضةٌ مكحلةٌ بأشجارِ النخيل، وتحتَنا تماماً نافورةُ دبي الراقصة. أما برجُ خليفة نفسُه، فقد كانَ ونحنُ على منصتِه،

مثل حارسٍ أمينٍ أو أبٍ حنونٍ، يحرسُ أبناءَه ويغمرُهم بعطفِه ورعايتِه، فيما كانَ البحرُ الأزرق، الذي يشبهُ عيني أختي حنان، يمتدُّ عميقاً في الأفق، فلا ندركُ ببصرِنا نهايتَه. لقد كان بحراً كبيراً، استرخت جزيرةُ النخلةِ على شاطئِه، درةً من دُرَرِ الدنيا، وأيقونةً فريدةً من أيقوناتِه.

لم نرَ الرجلَ البدينَ على المنصة، لكننا رأيناهُ هنا، ببدنِه الذي يشبهُ كرةً مثقوبةً، يقفُ خلفَنا في الصورةِ العائليةِ التي التقطَها لنا الدليلُ!

صرختُ خائفاً:

– انظرْ يا أبي؛ الرجلُ السمينُ نفسُه، يقفُ خلفَنا في الصورة؟!

ارتابَ أبي من الأمر، وشعرَ بغرابةِ ما يحدث.

كانَ الرجلُ يقفُ خلفَنا في الصورة، وهو يرمقُ أبي بطَرْفِ عينيهِ المتوثِّبَتينِ مثلَ عيني ذئبٍ جائع. هذه المرّة شاركتْني أمي مخاوفي، واقترحتْ على أبي إبلاغَ الشرطة. لكن أبي لم يفعلْ شيئاً، وحاولَ إقناعَنا بأنَّ ما يحدثُ محضُ صدفة، وعادَ من جديد إلى تأكيدِه، أنه ليس ذلك الرجلَ المهمَّ، ليكون موضعَ اهتمامِ أحدٍ، أو مراقبتِهم.

لأوّلِ مرّة في حياتي، أشعر بأنَّ أبي لا يقولُ لنا الحقيقةَ كما عوّدنا دائماً!

كانت أمّي خائفةً كثيراً بعد أن رويتُ لها حكايةَ الرجلِ البدينِ الذي ظهرَ خلفَنا في الصورة، وكانَ أبي يحاولُ تبديدَ مخاوفِها بعدَ أن وجدَها تمسكُ بقوةٍ يدَ أختي حنان، على نحوٍ غيرِ مألوفٍ لنا.

لقد اختفى الرجلُ البدينُ من المنصة، فلم نرَ له أثراً بعد التقاطِ الصورِ التذكارية، مثلما لم نرَه من قبلُ!

أين اختفى هذا الرجلُ المريبُ الذي يشبهُ كرةً مثقوبة؟

سألتُ أبي، وأنا داخلَ السيارةِ التي كانت تُقلنا إلى حديقةِ الفراشات:

– ما هذه الصورةُ الكبيرةُ التي إلى يمينِنا يا أبي؟

أجابني أبي، بعد أن ألقى نظرةً خاطفةً على الصورة:

– إنها شعار روح الاتحاد يا بُنيّ، ويظهرُ فيها الشيخُ زايد، رحمه الله، مع إخوانِه حكامِ الإمارات، وخلفَهم ترتفعُ ساريةُ علمِ الدولة، وهؤلاءِ الرجالُ الأحرارُ هم مَن وضعَ اللبنةَ الأولى لاتحادِ هذه الأرضِ الطيبة.

– ولماذا اتّحدُوا يا أبي؟

– ليصبحوا أكثرَ قوةً ومَنَعةً يا بُنيّ.

– أن يصبحوا أكثرَ قوةً ومَنَعةً يا أبي؟

سألتُ أبي، فيما كانت صورةُ الاتحادِ التي رأيتُها للتو، لا تزالُ مطبوعةً في ذهني، فقالَ وهو يميلُ برأسِه إلى الخلف، حيثُ أجلسُ في المقعدِ الخلفيِّ إلى جوارِ أمي وأختي حنان:

– هل تريدونَ أن أرويَ لكم حكايةَ الاتحادِ من أولِها إلى آخرِها؟

فصِحتُ بهِ فرحاً:

– أنا أُريدُ يا أبي.

وكذلك أبدت أمي رغبتَها بسماعِ الحكاية.

قال أبي:

– قرأت مقالاً صحفياً يقول إنه (على هذه الأرضِ الطيبةِ، كانتْ تعيشُ سبعُ إماراتٍ كتفاً إلى كتف، متلاحمةً متحابَّة. وفي يومٍ من الأيام، فكّر حاكمُ إحدى تلكَ الإمارات أن يحققَ حُلماً راوَدَه منذُ زمن، وهو توحيدُ هذه الإماراتِ السبعِ تحتَ رايةٍ واحدة، لتزيدَ من ترابُطِها وتعزِّزَ من تكاتُفِها ومَنَعتها. كانَ الحاكمُ بعيدَ الرؤيةِ، ويرى ما لا يراهُ الآخرونَ بفضلِ حكمتِه وتبصُّره. وعملَ الحاكمُ الحكيمُ بكلِّ جدٍّ وصبر، علّه يأتي يومٌ على قومِه يدركونَ فيه ما كانَ يصبو إليه. وجاءَ هذا اليومُ أخيراً، فأدركَ أهلُها معنى ذلكَ الحلمِ الذي تحقق، ولمسوهُ بأيديهم واقعاً متجسداً أمامَ أعيُنِهم.

الحاكمُ الحكيمُ والرجلُ الرشيدُ هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الذي جسّدَ باسمِه معنى القيادة، واقترن ذكره بالشجاعة والإقدام. الشيخُ زايد الذي زرعَ البذورَ، كَفَلَ إنماءَها لأيادٍ أمينةٍ ترعاها بكلِّ حكمةٍ وحُب؛ فمشى الرعاةُ على خطى الوالدِ المؤسِّسِ، وقد ورثوا منه الحكمةَ والدرايةَ والحنكة، للنهوضِ ببلدِهم الإمارات، وبناءِ صروحِها، التي شاهدتُم بعضَها، وستشاهدونَ خلال هذين اليومينِ الكثير مما يخلُبُ القلبَ والبصرَ).

* * *

كانَ الدليلُ قد اتفقَ مع أبي، بعدَ ختامِ زيارتِنا لبرج خليفة أن تكونَ محطتُنا الثانيةُ حديقةَ الفراشات، ولفتَ نظرَ أبي، إلى أنَّه من حُسنِ حظِّ الأولادِ أنَّ الحديقةَ حديثةُ العهد، ولم يمضِ على فتحِ بابِها للزائرينَ سوى بِضعةِ أشهرٍ فقط.

ولأن أختي حنان تحب الفراشاتِ كثيراً، فقد كانَ لتلكَ الكلماتِ التي نطقَها السائقُ وقعٌ خاصٌّ في نفسِها؛ فإذ بها، وهي على هذه الحالِ من السعادة، تطلقُ ابتساماتِ الرضا عن هذهِ الزيارة، وتوزعُ نظراتِها المبتهجةِ على مساحةِ وجوهنا.

صِحتُ في داخلي: يا الله ما أجملَ هذا الفرحَ الذي يسكنُ في عينَي أختي حنان!

داخلَ الحديقة قرأتُ إعلاناً مكتوباً على ورقٍ مقوَّى يقول:

(لا تلمسْ الفراشات .. دعِ الفراشات تلمسك).

أعجبتني كلماتُ الإعلان، وقررتُ في نفسي ألّا ألمسَ الفراشاتِ أبداً، وأن أدعها هي تلمسني.

كانت الحديقةُ تتكون من ثلاثِ قِباب كبيرة الحجم تربُطها ممراتٌ ضيقةٌ، وداخلَ تلك القبابِ كانتِ النباتاتُ والأزهارُ تتسلق على جدرانِها وبين ممشى روادها. أما الفراشاتُ، من مختلفِ الألوانِ والأحجامِ والأنواعِ، فقد كانتْ تتطايرُ حولَنا، فتلمسُنا حيناً وتفرُّ منا حيناً آخر. فجأَةً راحتْ صيحاتُ الفرحِ تندفعُ من فمِ أختي حنان، بعدَ أن رأتْ فراشةً تحطُّ على كتِفِها!

– ماما .. ماما .. انظري كيفَ وقفتِ الفراشةُ على كتفي.

أخرجتْ أمي جوالها من محفظتِها، وراحتْ بفرحٍ قلما وجدتُه في عينَيها، تأخذُ الصورَ التذكاريةَ لتلكَ اللحظةِ النادرة، بينما كانت أختي حنان تميلُ بنظرِها المشدودِ نحوَ الفراشةِ الزرقاءِ المسترخيةِ على كتفِها، وهي تطلقُ العنانَ لفرحِها الذي غمرَ المكان. روادُ الحديقة، صغاراً وكباراً، شاركوا حنانَ فرحتَها، وسطَ بهجةِ كبيرِهم ودهشةِ صغيرِهم.

– يا لها من محظوظة!

– انظروا ماذا تفعلُ الفراشةُ على كتفِ هذهِ الطفلة!

وتصيحُ طفلةٌ غاضبةٌ في وجهِ أمها:

– أريدُ فراشةً تقفُ على كتفي مثلَ تلكَ الفتاة.

عند بابِ الخروج، مع نهايةِ جولتِنا داخلَ الحديقة، كانت الفراشةُ الزرقاءُ لا تزالُ ترفرفُ بجناحيها الرقيقينِ على كتفِ أختي حنان. حاولَ أبي إبعادَها عن كتفِها غيرَ مرّةٍ، لكنَّ محاولاتِه كلَّها باءت بالفشل. كانت الفراشةُ العنيدةُ، آنئذٍ، تهربُ من أصابعِه الممدودةِ إليها، فتحطّ على كتفها الثاني حيناً وعلى صدرها في حينٍ آخر، إلى أن راحتْ تتسلق باندفاعةِ المحبِّ، إلى خصلةٍ من خصلاتِ شعرها.

لقد أحبّتِ الفراشةُ أختي حنان، وأبت الرحيلَ عنها.

كانتْ حنان فَرِحةً بفراشتِها، وكان أبي يضربُ كفَّاً بكفٍّ، لا يعرفُ ماذا يفعلُ بهذه الفراشةِ العنيدة؟

قالت أمي بعدَ أن أعياها الانتظار:

– بلّغ إدارةَ الحديقة، علَّهم يجدون لنا حلاً مع هذه الفراشة.

أبلغَ أبي أحدَ القائمينَ على الحديقةِ بقصةِ الفراشة التي تأبى الرحيلَ عن خصلةِ شعرِ ابنتِه الصغيرة. غيرَ أنَّ الموظفَ الذي أثارَتْه روايةُ أبي، استسلمَ هو أيضاً لعنادِها، فاتخذَ لتوّه قراراً يقضي بأن تكونَ هذهِ الفراشةُ الزرقاءُ، هديةَ إدارةِ الحديقة، لزائرةٍ صغيرةٍ تُدعى حنان.

أما أختي حنان التي فرحت بهديتِها، فقد حلّقت عالياً من شدّة سعادتِها، بعدَ أن أضحت فراشة زرقاء مثل فراشتِها.

نسيتُ أن أقولَ لكم، إنَّ حكايةَ أختي حنان مع الفراشة، أضحتْ على كل لسانٍ، وأصبحت خبراً مثيراً في عددٍ من الصحفِ المحليّة. أما مديرُ الحديقةِ، فقد أثنى على تصرّفِ الموظفِ الذي أهداها الفراشةَ، وأمرَ بصرفِ مكافأةٍ مجزيةٍ له، على حكمتِه وحسنِ تصرُّفِه.

هذه المرّة لم ألحظ وجودَ الرجلِ البدينِ في الحديقةِ ولا في الصورِ التي التقطناها معاً، فبتُّ مقتنعاً بكلامِ أبي، أنَّ وجودَه في صورِنا من قبل، لم يكن سوى محضِ صدفة.

أبي طيبٌ وحنون، وأنا أُحبُه كثيراً. يا ربِّ احفظ لي أبي واحْمِه من كل سوء.

❋ ❋ ❋

وجهتُنا الثالثةُ كانتْ حديقةَ الزهور، وعرفتُ من حديث أبي مع الدليل، أنها ستكونَ ختامَ جولتِنا لهذا اليوم.

تبعد حديقةُ الزهورِ عن حديقةِ الفراشات بِضعةَ عشراتٍ من الأمتار، ولعلَّ قربَها هذا هو الذي جعلَها محطتَنا الثالثةَ والأخيرة، وبخاصّةٍ أن الشمسَ غابتْ منذ لحظاتٍ خلفَ الأفقِ البعيد، وأن التعبَ والإرهاقَ أصبحا باديينِ على وجهِ أمي وعلى مِشيتِها المتثاقلة.

– تمتدُّ حديقةُ الزهورِ على مساحةٍ واسعةٍ من الأرض، وتحوي في جنباتها، كما ترون، ملايينَ الزهورِ من مختلفِ الألوانِ والأشكال.

قال دليلُنا السائق، ونحنُ نعبرُ ممرَّاً ملكياً، كانتِ الزهورُ تحُفّه من كلِّ جانب:

- لقد أسموها الحديقةَ المعجزةَ؛ لدقةِ تصميمِها ومساحتِها الشاسعة، وتنوعِها الأكبرِ في العالم.

وعلى الرغم من تعبِها، فقد علّقت أمي بحماسة:

- لقد زرت عدداً من حدائقِ الزهورِ في العالم، ولكني لم أرَ مثيلاً لهذهِ الحديقة، فعلاً إنها الحديقةُ المعجزة.

وأضافَ أبي، وهو يشيرُ بيدِه إلى المساحاتِ الزاهيةِ الممتدةِ أمامه:

- انظروا إلى هذا الكوخ، وذلكَ الطاووس، وتلكَ الطائرة، وهذه الساعةِ الكبيرة، كلُّها مكسوُّةٌ بالزهور.

ثمّ التفتَ فجأة نحوَ الدليلِ يسألُه:

- هل تعرفُ عدد الفنيينَ الذين يشرفونَ على تنسيقِها، على هذا النحوِ الرائعِ من الأشكالِ البديعة؟

فأجابَهُ بعدَ هزّةٍ من رأسِه، يبحثُ من خلالِها عن إجابةٍ مقنعةٍ لهذا السؤالِ الصعب:

- لا أعرفُ بالضبط، لا بدّ أنهم بالمئات على أقلَّ تقدير.

كانتِ الحديقةُ، على رحابتِها، وارتفاعِ سورِها، مكسوةً بملايينِ

الزهرات، إلى درجةٍ يشعرُ فيها الزائرُ وهو يتمشى في داخلها، كأنَّه في جنةٍ من جنانِ الدنيا.

فجأة، صاحتْ أمي مرعوبةً، وهي تتلفتُ حوالَيها:

- حنان! أينَ ابنتي حنان؟

فأدركنا آنئذٍ أن أختي حنان قد تاهت عنا، ونحنُ مشغولونَ بالحديثِ عن الحديقة.

- لقد سرقَ الرجلُ البدينُ أختي حنان.

صِحتُ بأبي، وأنا أتلفتُ يميناً وشمالاً كالمجنون، أبحثُ عنها.

بقيتُ إلى جوارِ أمي التي كانتْ تجهشُ بالبكاء، بينما اندفع أبي والدليلُ كلٌّ منهما في اتجاهينِ مختلفينِ، يبحثانِ عنها.

هذه أولُ مرةٍ أفقدُ فيها أختي وتوأمَ روحي. هل خطفَ الرجلُ البدينُ أختي حنان ليطلبَ فديةً من أبي؟

- يا ربِّ أعِدْ لي أختي حنان، فأنا لا أُطيقُ الحياةَ دونَها.

ولم أكدْ أُنهي دعائي، حتى وجدتُ أبي وسائقَنا الدليلَ يعودانِ إلينا ومعَهما حنان. اندفعتْ أمي نحوَها وضمتها بعنفٍ إلى صدرِها، فيما تَمْتَم الدليلُ قائلاً، وهو يربت بحنوِّ الأبِ على كتفِها:

- لقد وفقنا اللهُ سبحانَه وتعالى بأن نحظى بزهرتِنا هذه من بينِ ملايينِ الزهراتِ في الحديقة.

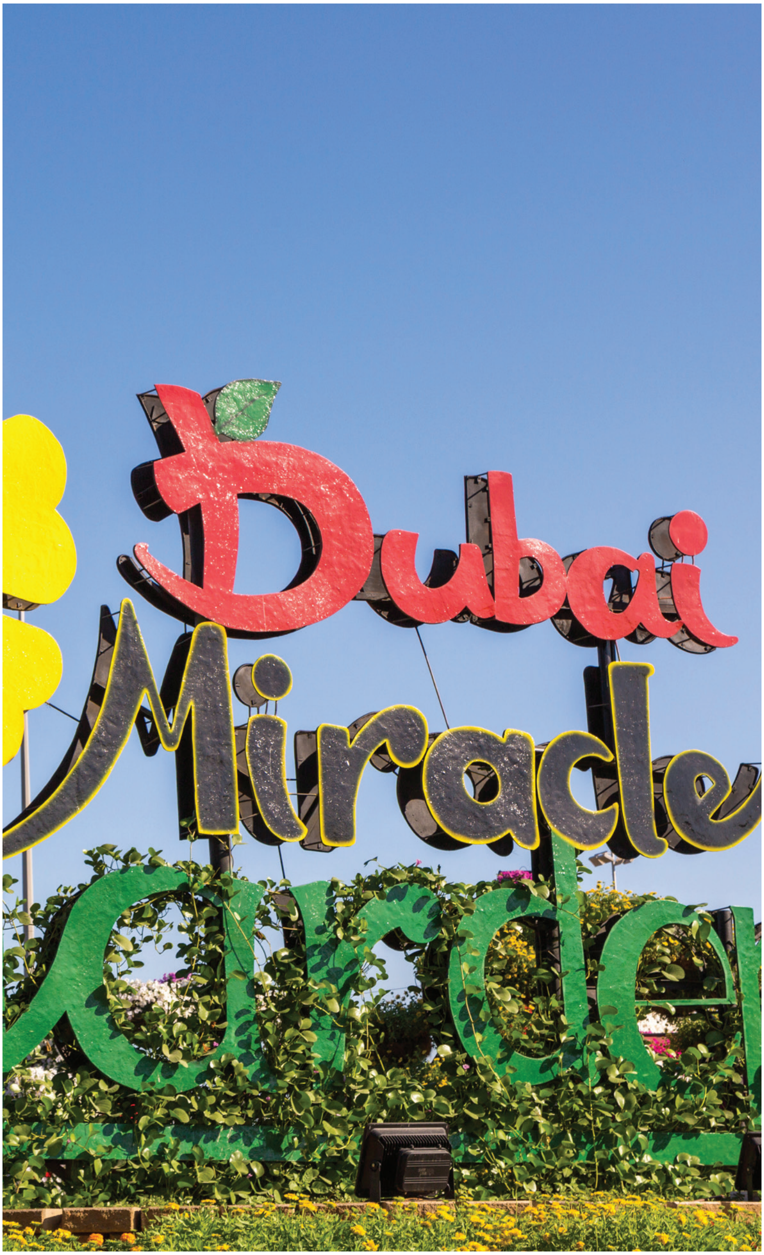
Dubai
Miracle

انشرحَ صدرُ أمي وعَلَتِ البسمةُ وجهَها، وأنا ألحظُها كيفَ كانت تحتضنُ براحةِ كفِّها يدَ زهرتِنا حنان، بل كيفَ كانت تُمعِنُ باحتضانِها.

تابعنا جولتَنا داخلَ الحديقة، ونحنُ نُصغي السمعَ إلى دليلِنا الذي لم يكن يبخلُ علينا بمعلوماتِه، فأظهرَ لنا عمقَ معرفتِه بالأزهارِ وأنواعِها، وبالبلدانِ التي استُوردت منها، وبالمهندسينَ المهرة الذين أبدعوا في تشكيلِها.

لقد خاب ظنِّي هذه المرّة بالرجلِ البدينِ الذي لم يخطف أختي.

هل كانَ أبي على حق حينَ اتهمَ الأفلامَ البوليسيةَ بتأثيرِها في عقلي؟

* * *

بعد عودتِنا، صعدْنا إلى جناحِنا في الفندق، وبدأنا نستذكرُ تفاصيلَ جولتِنا ونحنُ نستعرض الصورَ التي أخذناها في حديقتَي الفراشاتِ والزهور. مرةً أخرى يظهرُ الرجلُ البدينُ في الصورِ التي التقطناها في حديقةِ الزهور! يظهرُ في بعضِها خلفَنا تماماً، وفي بعضِها الآخر يظهرُ بعيداً عنا.

– أينَ كانَ خلالَ وجودِنا في حديقةِ الفراشات، ولماذا ظهرَ لنا في حديقةِ الزهور؟ أهو شبحٌ أم إنسان؟

كنتُ أتحدثُ مع نفسي، وأنا أرى التوترَ على وجهِ أبي.

أمي كانت خائفةً أيضاً، وكانت ترجو أبي أن يُبلغَ الشرطة، بعدَ أن أيقنتْ أن الخطرَ يَحيقُ بنا.

– ماذا تريدين أن أقولَ لهم؟ هناكَ رجلٌ يظهرُ خلفَنا في الصور! قد يهزؤونَ مني، ويقولونَ لي: إنَّ هذا الأمرَ يحدثُ دائماً في الأماكنِ العامة.

– احكِ لهم أيضاً عن وجودِهِ في الطائرة، وكيفَ كانَ يختلسُ التقاط الصورِ لكَ في الفندق، وهوَ ليسَ من نزلائِه.

– هذه الأمورُ لن يكونَ لها قيمةٌ عندَهم. قد يسألونَني: هل تعرّضَ لك بسوءٍ أو أصابكَ بمكروه؟ لا شيءَ من هذا أبداً، وستكونُ شكوايَ بلا معنى.

بتُّ ليلَتي خائفاً، دونَ أن أعرفَ ما الذي كانَ يدورُ في ذهنِ أبي.

أمي لم تدخرْ جهداً تلك الليلة في إقناعِ أبي بأن يشكوَ الرجلَ السمينَ للشرطة. لكن أبي كان مُصرّاً على رأيِه، بأنَّ ما يحدثُ معنا قد يكونُ مجردَ مخاوفَ، ليس فيها دليلٌ كافٍ لإبلاغ الشرطة.

* * *

بدأ يومُنا الثاني في دبي.

وعلى غيرِ عادتي في أيامِ العطل، فقد استيقظتُ باكراً رغمَ

المخاوفِ التي سبَّبها لي الرجلُ البدين. كان يحدوني الأملُ في أن تكونَ جولتُنا لهذا اليوم غنيةً مثل جولتِنا يوم أمس، في برج خليفة، وفي حديقتَي الفراشاتِ والزهور.

اتفقَ أبي مع سائقِنا الدليلِ البارحة، قبل أن يغادرنا إلى منزلِه، أن يأتيَنا إلى الفندقِ عند الساعةِ العاشرةِ صباحاً. كان برنامجُنا مخططاً له لهذا اليوم: يبدأ بجولةٍ في مدينة السلام، ثم القريةِ العالمية، لنعودَ بعد ذلك إلى الفندق للاستراحة لبعض الوقت، وفي المساءِ تبدأ جولتُنا في دبي مول.

كان الوقت ضيقاً، وكان أبي حريصاً أن نزور أهمّ معالمِ دبي، إن لم يُتح لنا الوقتُ الكافي لزيارتِها كلِّها، وكأن ما حدثَ معَنا مع ظهورِ ذلكَ الرجلِ الغامضِ في حياتِنا لم يعنِهِ في شيءٍ أبداً.

البارحةَ، وعلى طاولةِ العشاءِ في مطعمِ الفندق، قالَ أبي لأمي:

– لو كانَ الأمرُ بيدي لمددتُ وقتَ زيارتِنا ليومينِ أو ثلاثة.

ثم أردفَ قائلاً، وهو يتأمل أختي حنان وهي تأكل:

– الأولادُ أحبوا دبي كثيراً.

– نعم، وأنا أيضاً أحببتُها.

ثم تابعت وهي تلوّحُ بيدِها في الهواء:

- إنها بالفعل مدينةٌ مثيرةٌ، لكن السؤالَ الذي يخطر على بالي: كيف استطاعَ أهلُها أن يجمعوا العالمَ، كلَّ العالم، في مدينتِهم؟

- إنها إرادتُهم الحُرّة في جعلِ بلادِهم وطناً آمناً للسياحةِ والاقتصاد.

لكنَّ أمي استدركت قائلةً:

- كان بودي لو أنكَ أبلغتَ الشرطةَ بما يحدثُ معنا، أنا سعيدةٌ بزيارةِ دبي، ولا أُريدُ لمخاوفي أن تُعكّر صفْوَ سعادتي.

لكن أبي لم يُجبها. كان يتأملنا بصمتٍ ونحنُ نأكل.

* * *

مع وصولِنا إلى مدينةِ السلامِ في منطقةِ جميرا، كانتِ الاستعداداتُ قائمةً في أحدِ مرافقها الفخمة، لافتتاحِ مهرجانٍ سينمائيٍّ عالمي.

قال السائقُ الدليل لأبي:

- حظُّكم جيّدٌ، قد تشاهدونَ الآن بعضَ الممثلينَ والممثلاتِ العالميين؛ هذا المهرجان مهمٌّ ويحضرُه معظمُ نجومِ العالم.

أبي يعشق السينما العالمية ويتابعُ أخبارَ نجومِها، وسبقَ له أن فكّر في شبابِه أن يصبحَ مُخرجاً سينمائياً، لكن الظروفَ شاءت أن يدرسَ العلومَ الاقتصادية، ويصبحَ نجماً من نجومِها المعروفين.

لاحظتُ اهتمامَ أبي بحديثِ الدليل، بعدَ أن سألَه عن ضيوفِ المهرجان وعن أسماءِ النجومِ المتوقعِ حضورُهم؟ أبدى السائقُ الدليل عدمَ معرفتِه، واقترحَ على أبي أن يحصلَ له على كرّاسِ المهرجانِ الذي يحوي معلوماتٍ عن فعالياتِه وأسماءِ ضيوفِه. أثنى أبي على اقتراحِه، فغادرَنا فوراً، ليعودَ بعدَ دقائقَ معدوداتٍ، حاملاً بيدِه الكرّاس.

تابعنا جولتَنا في المدينة، بينما كانَ الدليلُ يحكي لنا ما يعرفُه من معلوماتٍ عنها. قال:

- يُعتبرُ مُنتجعُ مدينةِ السلامِ أكبرَ منتجعٍ في دبي، وفيه مرافقُ عامّةٌ للمؤتمراتِ والمهرجاناتِ.

وحينَ لاحظَ اهتمامَنا بالممرِّ المائيِّ الذي شاهدناهُ يقسمُ المدينةَ إلى قسمين، تابعَ قائلاً:

- هذا الممرُّ المائيُّ جزءٌ من ممراتٍ مائيةٍ طولُها نَحوُ خمسةِ كيلومتراتٍ، تربطُ مناطقَ في الجميرا بعضها ببعض، وفيها تاكسي مائي ينقلُ الروادَ والنزلاءَ إلى أنحاءَ واسعةٍ من المنتجع.

وحينَ سألناه عن التاكسي المائي الذي لم نلحظْ وجودَه، أجابنا قائلاً:

- أعتقدُ أنه في جولةٍ بالممر، وسيعودُ بعد قليل.

أثارت حكايةُ التاكسي المائي خيالي، ورحتُ أتصورُ شكلَه ولونَه،

وهل هو مثلُ التاكسي الذي نستخدمُه أحياناً في تنقلاتِنا، أم له شكل ولون آخر؟

وحينَ طلبتُ من أبي أن أقوم بجولةٍ بالتاكسي المائي مع أختي حنان، وَعدَني بتحقيق رغبتي، ولكن عند ختامِ زيارتِنا لمعالمِ المدينة.

كانت أبنية مدينةِ السلام أشبهَ بالدورِ العربية التقليدية، في قناطرها المزخرفة وأبوابها المطعَّمة بالصدف، وبعرائشِها ونوافيرِها ومصاطبِ الجلوسِ فيها. أما سوقُها التراثيُّ فقد كانَ نسخةً مطوّرةً من أسواقِ الشرق، وتُباع فيه الأدواتُ النحاسيةُ والمصدفاتُ والأقمشةُ المطرزةُ والأرابيسك والسجادُ والتحف.

لقد تذكرتُ دارَ جَدّي لأمّي في حلبَ وأنا أزورُ أحدَ بيوتها، وعادت بيَ الذاكرةُ إلى سوقِ الحميديةِ في دمشقَ وأنا أتجوّل في سوقِها.

صاحت أمي مندهشة:

– يا الله ما أجملَ هذهِ الدار، لقد وُلدتُ بدارٍ مثلِها!

وقال أبي:

– لقد أبدعَ من صممَ هذا السوق .. أشعر الآن كأنني فعلاً في سوقِ خانِ الخليلي في القاهرة.

ولم ينسَ أبي شراءَ بعضِ التذكاراتِ الصغيرةِ لنا، لتظلَّ وديعةً جميلةً نحتفظُ بها، تعيدُنا متى شئنا إلى ذكرى زيارتِنا لهذه المدينةِ العربيةِ المحبوبةِ، التي أسموها مدينةَ السلام.

عند خروجِنا، كان التاكسي يقف على شاطئِ الممرِّ المائي المحاذي للسوق، وهو عبارة عن مركبٍ خشبيٍّ مسقوفٍ حتى نصفِه، وتزدانُ أطرافُه برسوماتٍ تقليديةٍ شعبية. كانت فرحتي كبيرةً حينَ رأيته يتهادى فوق الماء، وفي مقدمته يقفُ القبطانُ بطولِه الفارعِ استعداداً لرحلتِه القادمة، فلم يكن أمامي في تلك اللحظاتِ سوى النظرِ في عيني أبي، أُذكّره بوعدِه لي.

أمي تخافُ علينا من ركوبِ الماء، وسبقَ لها أكثرَ من مرة أن أبدت خوفَها هذا على مسمعِ أبي.

– دعيهم يجربونه، وسأكونُ إلى جانبِهم.

وحينَ أبصرَ الخوفَ في عينيها، أشارَ إلى بعضِ الرجالِ الواقفينَ إلى جانبِ التاكسي، وهو يردفُ قائلاً:

– انظري إلى هؤلاء، إنهم منقذونَ مهرة.

وبعدَ أن رأينا أمّي تستسلمُ لكلامِ أبي وسطَ رغبتي الجامحة، اندفعنا جميعاً نحو التاكسي، فيما بقيتْ أمي وحدَها تجلسُ على مقعدٍ خشبيٍّ على اليابسة، بانتظار عودتنا.

خلال جولتِنا المائية تذكرتُ الرجلَ البدينَ، وخفتُ على أمّي التي تركناها وحدَها هناك، وتخيلتُها فريسةً سهلةً لذلكَ الشبحِ الغامضِ الذي يتبعُنا. غيرَ أنَّ أبي هدّأ من رَوعي، بعدَ أن طمأنَني أنَ السائقَ على مقربةٍ منها، وأنْ لا خشيةَ عليها وسطَ هذا العددِ الهائلِ من روادِ المدينة.

إثرَ رحلتِنا المائيةِ الممتعةِ، اقترحَ أبي أن نجلسَ في أحدِ المقاهي المطلةِ على الممرِّ المائي.

طلبَ أبي فنجاناً من القهوة، وطلبَ لي ولأمي وأختي حنان عصيرَ البرتقالِ والأناناس. أخذ أبي رشفةً من فنجانِه، ثم بدأ يتصفحُ كرّاس المهرجان السينمائي، صفحةً بعد صفحة، وإذ به فجأة ينتفضُ ضاحكاً، وهو يعرضُ أمامَ عينَي أمّي، واحدة من صفحاتِ الكراس:

فوميزة
STEAK HOUSE
Gun Smoke
KEBAB SHIRAZ
كباب شيراز
مطعم ايراني

– انظري هنا؛ إنه هو، الرجلُ السمينُ الأصلعُ الذي أخافك!

أُصيبت أمّي بالذهول، وهي ترى صورةَ الرجلِ الذي عكّرَ صفْوَ سعادتِها، منشورةً في الكرّاس.

وتابعَ أبي يقول:

– إنَّه مندوبُ شركةِ إنتاجٍ سينمائي، وضيفٌ من ضيوفِ المهرجان.

– لقد أسأنا الظنَّ به.

قالت أمّي، فيما قالَ أبي مازحاً:

– ربما أعجبَه وجهي، ويسعى لأن يجعلَني نَجماً من نجومِ السينما.

ضحكت أمّي على مزاحِ أبي، بينما تخيلتُه أنا نجماً سينمائياً مشهوراً، مثل نَجمي المحبوب جيمس بوند.

* * *

دخلنا القريةَ العالميةَ عبرَ بابِها الضخمِ الذي يشبه باب قلعةٍ قديمةٍ من قلاعِ الماضي، لكنَّه هنا في دبي، أصبحَ باباً للمحبة والسلام، ولاكتشاف ثقافات العالم في الشرقِ والغرب.

كانت أختي حنان أكثرَنا سعادةً بهذه الزيارة، بعد أن رأتْ ألعابَ

الأطفال وقد انتشرت على مدِّ بصرِها: أرجوحةُ المقص، السيارةُ الكهربائيةُ والسيارةُ المائية، العجلةُ الدوارةُ... وألوانٌ أخرى من الألعاب، لم نرَ مثلَها من قبل.

كانتِ القريةُ مليئةً بالناسِ من كلِّ لونٍ وجنس، وكلُّ واحدٍ منهم يذهبُ إلى ما يحبُّه ويثيرُ فضولَه. هناك من يلتفُّ حولَ لاعبِ الخفة، ومجموعةٌ تتابعُ بدهشةٍ الألعابَ النارية، وأخرى مذهولةٌ بِبَهلوان عجلةِ السيرك، فيخافونَ عليه حيناً ويبتهجونَ من حركاتِه في حين، وثَمّة أُناسٌ هنا وهناك يلتقطونُ لبعضهم الصورَ التذكارية، فتلحظُ كلَّ زائرٍ مشغولاً بنفسِه في القرية، بعد أن تحولت زيارتُه إلى تجربةٍ غنيةٍ مفعمةٍ بالسعادة.

هذه المرة اعترضت أمّي على رغبةِ أختي حنان في الصعودِ على الدولابِ الدوّار، بعد أن رأتهُ يدورُ حول نفسِه، وترتفعُ مقاعدُه المتحركةُ عشراتِ الأمتارِ إلى أعلى. لكن والدي، مثلَ كلِّ مرة، أدخلَ الطمأنينةَ إلى نفسِها، بعدَ أن أبلغَها بأنَّه سيرافقُها ويجلسُ إلى جوارِها، فيما تطوعَ السائقُ الدليلُ بمرافقتي والجلوسِ إلى جواري.

كانت أختي حنان تلوّح بيدِها لأمي من فوق، وكانت أمّي تستجيبُ لها فتلوّحُ بيدِها من تحت، وحينَ كان الدولاب ينزلُ بنا إلى أقربِ نقطةٍ من الأرض، كنتُ أرى الخوفَ والقلقَ في عيني أمّي، وهيَ تتبعُنا بنظراتِها المضطربةِ في رحلتَي الصعودِ والهبوط.

بعد الدولابِ الدوارِ حضرنا عروضاً للاعبِ خفّةٍ ولبَهلوان يقومُ بحركاتٍ مثيرةٍ على دراجتِه، وثالثٍ لألعابٍ نارية. تجولنا في بعضِ أجنحةِ الدولِ المشاركة، فاشترى أبي عُبوةً من عسلِ اليمن، واشترت أمي زيتَ الأرغانِ الشهيرِ من جناحِ المغرب، بينما اقتنت أختي حنان قلادةً نُقشت عليها ورودٌ من جناحِ إسبانيا، أما أنا، فاشتريتُ دباً أبيضَ من الجناحِ الصينيِّ لكي أهديَه لأختي حنان في عيدِ ميلادها. ثم قبلَ أن نحضرَ عرضاً لفنِ (اليولة) الإماراتي، أكلنا اللقيماتِ الإماراتيةِ الساخنةَ من أحدِ الأكشاك، بعدَ أن رأيناها تتراقصُ بخفةٍ بلبلٍ صغيرٍ داخلَ إناءِ الزيتِ المغليِّ، لتتحولَ بعدَ حينٍ إلى كُراتٍ ذهبيةٍ تخطفُ البصر!

كان عرضُ (اليولة) جذاباً، تدور فيه البنادقُ الصغيرةُ دوراناً خلّاباً بأيدي الراقصين، فيما كان صفَّانِ متقابلانِ من الرجالِ يردِّدونَ الأهازيجَ الشعبيةَ وهم ممسكونَ بعصيً رفيعةٍ يُحركونَهَا من الأسفلِ إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل، وتارةً يثبِّتونَهَا على الأرض، في حركةِ تحدٍّ وتواضعٍ تعكسُ قيمة اجتماعية لا يعرفُ معناها إلا أهلُها.

قال السائقُ الدليلُ:

– الإماراتيونَ مهتمونَ بفنِّ (اليولة)، لأنه يعززُ هويتَهم الوطنيةَ، ويؤكدُ أصالةَ موروثِهم الشعبي.

فعلّقَ أبي قائلاً:

– إنه فنٌّ أصيلٌ بالفعل، فقد شعرتُ وأنا أُتابعُ طقوسَه كأنني أمامَ عرضٍ مسرحيٍّ مَهيب.

في طريقِ عودتِنا إلى الفندق، قال أبي وهو يودعُ القريةَ بنظراتِ الإعجاب:

– هذه ليستْ قريةً عالميةً فحَسْب، بلِ العالمُ كلُّه في قرية.

أما أنا، فقد كنتُ في تلكَ اللحظةِ، مشغولاً بأنوارِها البراقةِ، حيثُ بدت لي من خلفِنا وسطَ العتمة، وكأنَّها بحرٌ هائجٌ من الأضواءِ الملونة، أما عجلتُها الدوارةُ، فقد كانتْ قمراً مكتملاً يسيرُ في الفضاء.

قبلَ صعودِنا إلى جناحِنا في الفندق، قالَ موظفُ الاستعلاماتِ لأبي: إن رجلاً اتصلَ به خلالَ جولتِنا، وسيزورُه قبل مغادرتِنا الفندقَ يومَ غدٍ.

التبسَ الأمرُ على أبي، وهو الذي لا يعرفُ أحداً في دبي. وأكثرُ ما شغلَ بالَه هو: كيفَ عرفَ هذا الرجلُ أنَّنا سنغادرُ الفندقَ يومَ غدٍ؟

هل بدأَ الرجلُ البدينُ، مندوبُ شركةِ الإنتاجِ، لعبتَه السينمائيةَ مع أبي؟

مساءً، في مول دبي، كانت أمّي أكثرَ حيويةً ونشاطاً، وأكثرُ ما

أثارَ دهشتَها فيه، ذلك التنوعُ الغنيُّ بالبضائعِ من مختلفِ البلدانِ والماركات. أمي تُحب التسوّقَ، وسبقَ لها أن اعترفَتْ لأبي بأنَّه أحدُ مصادرِ سعادتِها في الحياة. لكن الغريب في أمر التسوّقِ عند أمي أنَّها نادراً ما تتسوَّق لنفسِها، وكان جلّ ما تشتريه، عادة، لي ولأختي حنان، وكانَت متعتُها الوحيدةُ في أن ترى الفرحَ يغمرُ عيونَنا، ونحنُ نعبثُ بتلكِ الأشياءِ التي تشترْيها لنا.

كانَ مولُ دبي، لحظةَ دخولِنا إليه، يعجُّ بالمتسوّقينَ، وبدا لي، وأنا أسيرُ إلى جوارِ أبي وأمّي وأختي حنان، مثلَ خليةِ نحلٍ لا تعرفُ السكينةَ والهدوء. كانَ المتسوّقونَ من كلِّ المِلَلِ والأعراق: آسيويونَ وأوربيونَ وأمريكيونَ وعربٌ. جمعتْهم مدينةٌ واسعةٌ وسعَ العالمِ،

وألَّفَتْ بينَ قلوبِهم بجمالِها ومحبةِ أهلِها. لقد أتاحتْ لي تلكَ الجولةُ في المول، ولأولِ مرةٍ في حياتي، أن أسمعَ فيها لغاتِ العالمِ كلِّها، وهيَ تجتمعُ في مكانٍ واحدٍ!

تجوَّلنا في المول، فهَالَنا حوضُ الأسماكِ الضخمُ، وأدهشتْنا رؤيةُ التماسيحِ والبطاريقِ في حديقةِ الحيواناتِ المائية، فيما تعلَّق بصرُنا بشلالِ الماءِ الهادرِ، وبتماثيلِه التي كانتْ تنزلقُ بصدرِها العاري إلى أسفل، مع موجاتِ الشلالِ العاتية.

رغبتْ أمي في شراءِ الكثيرِ من الأمتعةِ التي أحبّت اقتناءَها، لكنَّ أبي لفتَ نظرَها إلى أنَّ الوزنَ الذي يُسمحُ لنا بنقلِه على الطائرةِ يكادُ ينفدُ، وأنَّ عليها التقنينَ في مشترياتِها قدْرَ الإمكان، وخاصةً الأوزانَ الثقيلةَ منها. اقتنعت أمّي بملاحظةِ أبي، واكتفت بشراءِ بعضِ الحاجياتِ لي ولأختي حنان، مع زجاجةِ عطرٍ لأبي.

– وماذا عنكِ؛ ألم تجدي شيئاً تشترينَه لنفسكِ؟

سألَها أبي، فأجابتْه:

– عندِيَ الكثيرُ، لستُ بحاجةٍ إلى شيءٍ.

أمّي تحبُّنا أكثرَ من محبتِها لنفسِها، وسعادتُها تنبعُ من سعادتِنا، يا ربِّ احفظ لي أمّي، وامْنحْها الصحةَ والسعادةَ وطولَ العُمُر.

اقترحَ أبي علينا أن نتناولَ العشاءَ في أحدِ مطاعمِ المول المطلةِ

على نافورةِ دبي الموسيقية، لنحضرَ من هناكَ عرضاً من عروضِها الساحرة، التي شاهد أحدَها أبي، ذاتَ مرةٍ، في واحدةٍ من محطاتِ التلفزةِ العالمية.

كان الرواد المتحلقون حولَ النافورةِ مشدودينَ لهذا المشهدِ الرائعِ، وهم يرونَ الماءَ المُضاءَ والصاعدَ بقوةٍ إلى أعلى، يتراقصُ يميناً وشمالاً مع أغنية (شارك الغي في سما دبي) للفنان ميحد حمد.

صاحت أختي حنان:

– يا الله ما أجملَ هذه النافورة.

وقالت أمّي:

– إنَّه عرضٌ رائعٌ.

أما أبي، فقد كانَ في تلكَ اللحظةِ، يرددُ الأغنيةَ التي سحرتْهُ بألحانِها وحنينِ كلماتِها: شارك الغي في سما دبي .. كان تبغي تشوف الناس في جنّة.

سألت أبي:

– ما معنى كلمة (الغيّ) يا أبي؟

فأجابني:

– تعني في اللهجةِ الإماراتيةِ يا بنيّ، مظاهرَ الفرحِ والاحتفالِ، وأهلُ الإماراتِ يولونها، في حياتِهم الاجتماعيةِ، كلَّ الرعايةِ والاهتمامِ.

* * *

اليوم سوفَ نُمضِي ساعاتِنا الأخيرةَ في دبي.

ليلاً، عندَ الساعةِ التاسعةِ سنكونُ في مطارِ دبي، وعندَ تمام الساعةِ الثانيةَ عشرةَ، سوفَ تنطلقُ بنا الطائرةُ إلى العاصمةِ الهنديةِ نيودلهي.

كم تمنيتُ خلالَ هذهِ السويعاتِ الباقيةِ أن يكونَ بمقدورِ أبي تمديدُ زيارتِنا لبضعةِ أيامٍ، حتى أستطيعَ رؤيةَ دبي كلِّها، بلْ كلَّ مدنِ الإماراتِ العربيةِ المتحدةِ.

قررَ أبي أن نركبَ مترو دبي، ونقومَ بجولةٍ في مناطقِها، ثم نزورَ، في ما تبقى لنا من وقتٍ فندقَ أتلانتس الشهير.

سبقَ لي كثيراً أن ركبتُ خطوطَ المترو في ألمانيا، لكنْ ما شعرتُ بهِ وأنا في مترو دبي كانَ له وقعٌ خاصٌّ في نفسي، لم أشعر به من قبلُ. كان المترو نظيفاً وأنيقاً، وحوى في جنباته كلَّ وسائلِ الراحةِ والأمانِ. انطلقنا من محطةِ مرسى دبي جنوباً إلى محطةِ برجِ خليفة / دبي مول شمالاً، مروراً بمدينة دبي للإنترنت، ومولِ الإمارات، والخليج التجاري... وغيرِها من صروحِ دبي ومعالِمِها الاقتصاديةِ والإعلاميةِ والثقافيةِ والاجتماعيةِ. كانتِ الأبراجُ أكثرَ ما استحوذَ على بصرِنا، في علوِّها وهندستِها وبريقِ ألوانِها، وبالمساحاتِ الخضراءِ التي تُسوِّرها.

في فندقِ أتلانتس، الذي وصلنا إليهِ عبرَ نفقٍ تحتَ الماءِ، سمعْنا من السائقِ الدليلِ حكايةَ الفندقِ، التي تعودُ إلى أزمانٍ غابرةٍ . قال:

– شُيِّد هذا الفندقُ في دبي إحياءً لذكرى قارةِ أتلانتس الأسطوريةِ الغارقةِ التي لم يثبُتْ وجودُها حتى الآن، ولقد ألهمتْ هذه القصةُ خيالَ الكثيرينَ من الكتابِ ومنتجي الأفلام، لتقديمِ عددٍ ضخمٍ من أفلامِ الخيالِ العلمي. أما أصلُ القصةِ، فيعودُ إلى محُاورتين للفيلسوفِ أفلاطون يتحدثُ فيهما عن جَدِّه الذي زارَ مصرَ ولقائِه مع الكَهَنَة هناك، وحديثِهم عن القارةِ الأطلسيةِ التي حكمتِ العالم. ومنذُ أن حكى جدُّ أفلاطونَ هذه الأسطورةَ لحفيدِه، أصبحت موضعَ اهتمامِ الناسِ منذُ غابرِ الأزمانِ حتى يومِنا هذا.

علّقت أمّي قائلةً:

– منذُ سنواتٍ رأيتُ فيلماً عن هذهِ الأسطورةِ ،كان فيلماً مُمتعاً.

وقال أبي:

– ما هوَ مهمٌّ في الأساطيرِ أنها تُغْني الخيالَ البشريَّ، وتمنحُه القدرةَ على الإبداع.

وبعدَ جولةٍ قصيرةٍ في أرجائِه، وأخذِ الصورِ التذكاريّةِ في فناءاتِه الفسيحةِ، عُدنا إلى الفندقِ الذي ننزلُ فيه، استعداداً لرحلتِنا المرتقبةِ إلى الهند.

عندَ دخولِنا إلى الفندق، قالَ موظفُ الاستعلاماتَ لأبي:

– لقد وصلَ الرجلُ الذي اتّصلَ بكَ يومَ أمس، وها هو ينتظرُك هناك.

كانَ الرجلُ يجلسُ على أريكةٍ في مكانٍ قصيٍّ من البَهْوِ، مرتدياً الزيَّ الإماراتيَّ التقليدي.

قالَ الرجلُ لأبي:

– أنا النقيبُ سالم الحمد من شرطةِ دبي.

وحينَ حاولَ أبي تقديمَ نفسِهِ، قاطعَهُ النقيبُ قائلاً باحترامٍ جمٍّ:

– حضرتُك الدكتور حازم حداد، رجلُ الاقتصادِ المعروف.

في تلك اللحظة، انفرجَت أساريرُ أبي، بعدَ لحظاتٍ من القلقِ الذي كانَ بادياً على وجهِهِ.

– لديَّ رسالةٌ شفهيَّة، كلَّفتْني إدارةُ شرطةِ دبي أن أُوصِلَها بنفسي إليك.

– تفضلْ سيادةَ النقيب .. كلِّي آذانٌ صاغية.

فتابعَ النقيبُ حديثَه:

– قَبضنا يومَ أمس على عضوٍ في عصابةٍ عالميةٍ، كانَ يسعى لسرقةِ

ملفٍّ تحملُه معكَ إلى الهند، لصالحِ شركةٍ منافسةٍ.

هزَّ أبي رأسَه، وكأنَّه لم يتفاجَأ بالأمر. ثم قالَ للنقيبِ:

– هذا يحدثُ أحياناً، والملفُّ الذي أحملُه في مكانٍ أمينٍ، طالما أنَّي على أرضِ الإمارات.

فأعقبَ النقيبُ على إطراءِ أبي بالقولِ:

– مهمتنا هنا ليسَت إسعادَ الزائرِ فقط، بلِ الحفاظُ على أمنِه وممتلكاتِه.

وسألَه أبي مُستفسِراً:

– وكيفَ اكْتشفتُم أنَّه كانَ يخططُ لسرقةِ الملفِّ الذي أحملُه؟

فأجابَه النقيبُ:

– لدينا معلوماتٌ خاصّةٌ عن جرائمِه وعنِ العصابةِ التي ينتمي إليها، وكنا نراقبُه منذُ دخولِه مطارَ دبي باسمٍ وهميٍّ، مُنتحلاً صفةَ مندوبِ شركةِ إنتاجٍ سينمائيٍّ، وقبضنا عليه بالجرم المشهود، وهو يحاول تعطيل الكاميرات لاقتحام جناحكم في الفندق.

– مندوب شركةٍ سينمائيّةٍ؟!

تَمْتَمَ أبي وهو يعرضُ على النقيبِ صورةَ الرجلِ السمينِ المنشورةِ في الكرّاس، فتبينَ له أنَّه هو نفسُه عضوُ العصابةِ الذي قبضتْ عليهِ الشرطة.

وضعَ النقيبُ طرفَ أصبعِهِ على الصورةِ وهو يقول:

– إنَّه عضوٌ في عصابةٍ خطيرةٍ، ولكنَّ يدَ العدالةِ فوقَ الجميع، وها هي تطالُهُ أخيراً.

ابتهجتْ أمّي من هذهِ النهايةِ السعيدةِ، فيما كانَ أبي يفكّرُ بالشركةِ المنافسةِ التي حاكَتْ هذهِ المؤامرةَ الفاشلةَ ضدّ شركتِه؟

أمَّا أنا، فقد كنتُ لا أزالُ أتخيَّلُ أبي نجماً سينمائياً، رغمَ اكتشافي أنَّ الرجلَ البدينَ الذي يشبهُ كرةً مثقوبةً، ليسَ مندوبَ شركةٍ سينمائيةٍ، بل عضوٌ خطيرٌ في عصابةٍ عالميةٍ.

ربطتُ الحزامَ على خصري جيداً كما طلبَ مني أبي، وفي داخلي

رغبةٌ عارمةٌ في أن تتكرَّرَ زيارتي لدبي، بعدَ أن منحتْني مغامرةً غنيةً مفعمةً بالحياة.

كان بودي أن أزورَ مدينةَ الألعابِ المغلقةِ، ودبي للحدائقِ والمنتجعاتِ، ومول ابنِ بطوطة... وغيرُها كثيرٌ، لكن الطائرةَ أبت تلك الليلة إلا أن تُقلعَ بنا عالياً، فبِتْنا نرى دبي من أعلى، بحراً شاسعاً وزاهياً من الأمواج والأضواء.

يا ربِ احفظْ الإمارات وأهلَها، وباركْ لهم في بلدِهم، واحمِهم من كلِّ سوء.

المؤلـف

* غازي حسين العلي

صحفي وروائي سوري، من مواليد مدينة حلب. عمل في الصحافة اللبنانية ثم انتقل للعمل بدمشق في صحيفة الثورة، وأشرف على ملحقها الثقافي الأسبوعي لمدة سبع سنوات من 2006 إلى نهاية 2013. وهو عضو اتحاد الكتاب العرب في سوريا.

من نتاجه الأدبي:

- رواية «حمود مستدير القامة»: دمشق، دار المجد، 1995.
- رواية «صخب الأرصفة»: دمشق، دار نينوى 2003.
- رواية «حديقة الرمل»: دمشق، 2005.
- رواية «سموات الوحشة» دار رياض الريس، بيروت 2009.
- رواية «ليلة الإمبراطورية» دار ضفاف، بيروت 2014.
- «دخلت الرصاصة من النافذة» «مسرحية»: دمشق، دار الوثبة.
- «أحداث ليلة» «قصة»: دمشق، دار الجليل.